الخبرة الجمالية وأبعادها التربوية في فلسفة جون ديوي

الدكتور صابر جيدوري

كلية التربية

جامعة دمشق

الملخص

هدفت الدراسة إلى التعرف على مفهوم الخبرة الجمالية وأبعادها التربوية في فلسفة «جون ديوي»، ولتحقيق هذا الهدف سعت الدراسة – من خلال استخدامها طريقة تحليل المحتوى بصورتها الكيفية – إلى إبراز أهم الأفكار الفلسفية التي قامت عليها براجماتية «ديوي»، مما شكل أرضية فلسفية انطلق منها الباحث إلى بيان الأبعاد التربوية لمفهوم الخبرة الجمالية، والتي اتضحت من خلال دور التربية الجمالية في تنمية الذوق الفني والابتكار والإدراك الحسي والإدراك العقلي، وتنمية السلوك الأخلاقي وشغل أوقات الفراغ، وانتهت الدراسة بعد ذلك إلى تقديم تصور مقترح لإنماء الممارسة الجمالية في التربية العربية، وبينت الدرس المستفاد من دراسة هذا الموضوع على صعيد المدرسة ومنهجها.

مقدمة:

شكل الاهتمام بفلسفة الجمال والدراسات الجمالية محوراً رئيسياً من محـــاور التفكيـــر الإنساني، على اعتبار أن الإبداع الفني ظاهرة اجتماعية للحضارة ومؤشراً عاماً علـــى رقيها، فهو لا يقل في أهميته عن العلم، لأن العلم يسعى إلـــى الكـــشف عـــن البيئـــة الخارجية، بينما الإبداع الفني يكشف لنا البيئة الداخلية، ومن خلال تكيفهما معاً تنمـــو الحضارات وتتقدم وتزدهر.

لكننا نلاحظ اليوم (ومع الأسف) أن اللامبالاة أو عدم الاكتراث بالنسبة للقيم الجماليـــة، قـــد أصبح شائعاً لدى الكثيرين، وتكفي نظرة واحدة في الأوساط والبيئات المتنوعـــة للخـــروج بهذا الانطباع الذي نرجو أن يتبدل، فالإنسان لن تظهر عظمته حين يكسب شـــيئاً ويخـــسر ذاته، فالفكر وحده لا يصنع إنساناً عظيماً، والعاطفة وحدها لا تصنعه أيـــضاً، والإنـــسان الحق فعلاً هو من يحقق التوازن الجميل بين القول والفعل، بين الفكر والوجدان، بين القلب والعقل، فيجعل من الأفكار ألواناً من الفنون، ويشيع نبض الحياة في التأملات، فيجعل مـــن التأملات حياة.

هذه الصلة بين الإنسان والجمال دفعت الكثير من الفلاسفة إلى الاهتمام بالجمال، فقـــد ركّز «**أفلاطون**» جهوده على التصدي لانحلال أخلاق بني وطنه، واشتغل بالمـــسائل الأخلاقية، فجعل الخير شرطاً من شروط الجمال، وجعل الفن جزءاً من علم الأخلاق، وأكد في جمهوريته أن مهمة الفن مهمة تربوية، وذلك من خلال استخدام الموســـيقى لترقية أحاسيس الشباب بعد استبعاد بعض أنواعها التي تتسم بطابع الشكوى والكآبـــة واللذة. (عباس، 1987، 51).

وتجدر الإشارة إلى أن فلسفة الجمال عند أفلاطون ترتبط بفكرة التعالي مُعبراً عنها في صورة الفن، وبالتالي تصبح فلسفة الفن فكرة سامية وخالدة تعلو على إدراكنا، ولهـــذا يكون شرط الإحساس بها هو الاقتراب من الماهيات والمثل على قدر المستطاع، وكذلك

المشاركة في النماذج الأصلية لها، ومن دون أن نحس بالنماذج الخالدة ونحاول السعي إليها فلن نستضيء بالجمال الموجود في الأشياء، وعلى الرغم من أن الجمال في ذاته غير محسوس بالنسبة لنا، إلاّ أنه يجب البحث عنه والترقي إليه.

أما الجمال عند «**أرسطو**» فإنه يعني التناسب والتماثل والترتيب العضوي للأجزاء في كل ما هو مترابط من الأشكال، وهذا ما عبر عنه في الفصل السابع من كتابه «الشعر» حيث يقول «... الكائن أو الشيء المكون من أجزاء متباينة لا يتم جماله ما لم تترتب أجزاؤه في نظام، وتتخذ أبعاداً ليست تعسفية، ذلك لأن الجمال ما هو إلاّ التنسيق والعظمة». (الديدي، 1985، 16).

وجدير بالذكر أن رؤية «**أفلاطون**» للجمال كانت موجهة إلى مثال الجمال بالذات الذي رآه مبدأً متعالياً يسمو على الذات وعلى العالم، فهو نموذج أصلي خالد أو مثال خارج العقل الذي يتصوره، في حين رأى فيه «**أرسطو**» نموذجاً باطناً في العقل البشري ليس له موضوع نبحث عنه خارج أنفسنا، فليس هناك مثال يتجاوز حدود الإنسان أو العالم، فكل شيء موجود فينا نحن.

أما «**أفلوطين**» رائد الوحدانية، ومنهل الفلاسفة العرب، فقد رأى أن الجمال لا يكون في تناسق أجزاء الأشياء بل في الفكرة التي يعبر عنها، أي بإيحائه الباطن غير المتمظهر في الحس، والذي ندعوه لدى الإنسان نفساً، هكذا يكون الوجه جميلاً عندما يبرز منه جمال النفس، وتوحي هذه النفس بالجمال على قدر بروز صورة الخير الإلهي فيها.(خالد، 1983، 225).

ومع أن الأفلاطونية الجديدة كانت امتداداً لأفلاطون، غير أنها قد خلطت الجمال باللاهوت، بحيث لم يعد المجال يسمح للبحث في العبقرية المبدعة المستقلة، لأنها ارتبطت عند «أفلوطين» بالمبدأ الأوحد الذي هو الخير، والذي تصدر عنه الصور المشعة، وبعبارة أخرى، فإن الله هو مصدر الصور الفنية ومبدعها، كما أنه هو الذي

يفيض بها على من ارتقت روحه من الفنانين.(خالد، 1983، 230).

من ناحية أخرى فقد تركت الأفلاطونية بصماتها واضحة على فلسفة العصر الوسيط، وقد عبر «**أوغسطين**» عن الجمال ممثلاً في الوحدة أي الله، وأن قوانين الجمال والفن كالتساوي والتشابه والانسجام ما هي إلاّ انعكاسات للحقيقة أو الكلمة أو الله، كما ظهر «**سانت بازيل**» الذي مزج بين الفن واللاهوت، وتبنى الأفلاطونية المحدثة، ودافع عنها في كتابات ظهرت تحت اسم مستعار هو «ديو نيسيوس» الذي كان له أثر لا يستهان به في استطيقا العصور الوسطى.(كرم، 1979، 30).

وفي العصر الحديث ظهرت عند «**شوبنهور**» نغمة جديدة، فالجمال صفة للشيء الذي يبعث اللذة في أنفسنا بصرف النظر عن منفعته أو فائدته، وهو الذي يحرك فينا فعلاً غير إرادي من التأمل، ويشيع لوناً من السعادة الخالصة، حيث يكمن سر الجمال - كما يقول شوبنهور - في هذا الإحساس الموضوعي البريء من الهوى، وفيه تكمن أيضاً العبقرية الفنية، ويتحرر العقل بعض الوقت من الرغبة فيحقق تلك الصورة الخالدة أو المثل الأفلاطونية التي تُكون المظاهر الخارجية للإرادة الكلية، وعليه فإن الجمال عند «شوبنهور» هو الشكل الدال أو المثال المعطى إلى الإدراك الحسي في حدود الواقع، وبالتالي فإن العمل الفني هو تعبير الفنان عن مدى فهمه وإدراكه للمثال. (كامل، 1999، 52).

أما «**ايمانويل كانت**» فقد ربط موضوع الجمال بموضوع الأخلاق، وأكد أن الإنسان الذي يهتم بالجمال الطبيعي، لابد من أن يكون قد اعتاد من قبل حياة التأمل، ومن ثم فإن الخير الأخلاقي لابد من أن يكون قد أصبح متأصلاً في نفسه، ومعنى هذا أن الاهتمام المباشر بجمال الطبيعة هو مظهر من مظاهر النزوع نحو الخير الأخلاقي، أو على الأصح أثر من آثار التربية الأخلاقية، وإذا كانت هناك قرابة بين الأحكام الجمالية والشعور الخلقي، فذلك لأن الطبيعة تخاطبنا بلغة رمزية عن طريق ما فيها من أشكال جميلة، وحينما يهتدي

المرء إلى فك رموز هذه اللغة، فعندها سوف يعجب بمقاصد الطبيعة، ويفطن إلى ما في قوانينها من نظام، ويدرك أنها تنطوي على غائية خاصة هي في صميمها مرتبطة بغاية وجودنا وبمصيرنا الأخلاقي. (إبراهيم، 1972، 194).

ويرى «**هيغل**» أن الجوهري لفكرة الجمال يجب أن يكون موضوعاً حسياً، أي شيئاً موجوداً بالفعل أمام الحواس، كالتمثال أو المعمار أو الأصوات الموسيقية الجميلة، أو يكون تصويراً ذهنياً لموضوع حسي كما هي الحال في الشعر، ولابد أن يكون فرداً عينياً، إذ لا يمكن أن يكون تجريداً، فالموضوع الجميل يتجه إذاً إلى الحواس لكنه يتجه أيضاً إلى العقل أو الروح، لأن الوجود الحسي المحض – بما هو كذلك – ليس جميلاً، لكنه يصبح جميلاً حين يدرك العقل تألق الفكرة من خلاله، ومادامت الفكرة هي الحقيقة المطلقة، فإنه ينتج من ذلك اتحاد الحق والجمال، لأن كلاً منهما هو الفكرة، لكنهما متمايزان أيضاً، فالجمال – فيما يرى هيغل – هو الفكرة حين تُدرك في إطار حسي وحين تُدرك بالحواس سواء أكان في الفن أم الطبيعة، أما الحقيقة فهي الفكرة حين تُدرك في ذاتها أي بوصفها فكرة خالصة، وهي لا تُدرك بما هي كذلك عن طريق الحواس بل عن طريق الفكر الخالص أي عن طريق الفلسفة. (ستيس، 1982، 131).

ويشير «**شيلنج**» إلى أن الإبداع الفني ينشأ من التناقض اللانهائي، ولهذا كانت الفنون هي المعيار الذي توزن به جماليات المشاهد والمناظر الطبيعية، حيث يقوم الإبداع الفني على التقابل بين العوامل المتناقضة الفعالة وعلى التناقض الباطني، أي على شعور داخلي بالتناقض يصعب اجتيازه وتجاوزه إلاّ بتحقيق العمل نفسه، ومهما تكن العوامل المتناقضة التي ينبع منها العمل الفني، فإنه ينتهي بالنجاح في تحقيق الرضا والراحة والسرور، ويعقب إنتاج العمل الفني انفعال واضح لتحرره من التمزق الذي عاناه بسبب التناقضات. (الديدي، 1985، 18).

ويؤكد «**شيلر**» أن الإحساس بالجمال ليس موضوعاً ذاتياً فقط، وإنما يعتمد على قوانين

جمالية موضوعية، ويمكن في رأيه تقدير الجمال وفقاً لمقاييس موضوعية، ويـــرى أن الشيء لا يبدو جميلاً إلاّ إذا استقل وتحرر من الأسباب والعوامل الطبيعية، كذلك يصبح العمل الفني جميلاً عندما تختفي منه آثار العوامل التي أدت إلى وجوده، ولكنه يخالف «**شيلنج**» بعد ذلك فيرى أن الطبيعة هي صورة الكمال الذي ينبغي أن يتحقق بالحرية. (شيلر، 1991، 71).

بعد هذا العرض التاريخي لمعنى الجمال عند فلاسفة اليونان وفلاسفة العصر الحديث، وبيان أهمية هذا الميدان في الفكر الفلسفي عامة، يتجه الباحث إلى مناقشة مفهوم الخبرة الجمالية وأبعادها التربوية في فلسفة جون ديوي وذلك وفق الخطوات التالية.

خطوات السير في الدراسة:

تحقيقاً لأهداف الدراسة ومنهجها وفي ضوء المشكلة وأبعادها وحدودها، سارت الدراسة وفق الخطوات التالية:

القسم الأول: تحديد الإطار المنهجي للدراسة:

وهو ما انتهى إليه القسم الأول، حيث بدأ بالمقدمة وتحديد مشكلة الدراسة وتساؤلاتها، وأهدافها وأهميتها وحدودها، ومن ثم تم عرض المنهج المستخدم فيها، وأخيراً عرض الدراسات السابقة وصلتها بالدراسة الراهنة.

القسم الثاني: تحديد الإطار الفلسفي للدراسة:

وهو ما انتهى إليه القسم الثاني حيث تناول بالمناقشة والتحليل أهم الجوانب الفلسفية في فكر «ديوي» والمتمثلة في عملية النمو والديمقراطية والكفاية الاجتماعية والقيم، وغيرها من الموضوعات التي شكلت في مجملها فلسفة «ديوي» البراجماتية، وبعد ذلك انتقلت الدراسة إلى موضوعها، فتناولت مفهوم الخبرة الجمالية ومعاييرها من خلال مجموعة من المبادئ تمثلت بمبدأ تحول الخبرة واستمرارها وتكاملها وتفاعلها، وقد جاء هذا القسم

لتحقيق هدف الدراسة الأول المتمثل في الكشف عن تصور «جون ديـــوي» لمفهـــوم الخبرة الجمالية.

القسم الثالث: تحديد الإطار التربوي:

وهو ما انتهى إليه القسم الثالث حيث تناول بالمناقشة والتحليل الأبعاد التربوية لمفهوم الخبرة الجمالية في فلسفة «جون ديوي»، وذلك من خلال المحاور التالية:

1- دور التربية الجمالية في تنمية القدرة على التذوق الفني.

2- دور التربية الجمالية في تنمية الابتكار.

3- دور التربية الجمالية في تنمية الإدراك الحسي.

4- دور التربية الجمالية في تنمية الإدراك العقلي.

5- دور التربية الجمالية في تنمية السلوك الأخلاقي.

6- دور التربية الجمالية في تنمية الاستمتاع وشغل أوقات الفراغ.

وقد جاء هذا القسم لتحقيق هدف الدراسة الثاني والمتمثل في بيان الأبعاد التربوية لمفهوم الخبرة الجمالية عند «جون ديوي».

القسم الرابع: نتائج الدراسة ومدى الاستفادة منها في التربية العربية:

وفيه بين الباحث أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وكيـــف يمكـــن توظيفهـــا أو الاستفادة منها في التربية العربية على صعيد المدرسة ومنهجها، حيث جاء هذا القـــسم لتحقيق هدف الدراسة الثالث، والمتمثل في وضع تصور مقتـــرح لإنمـــاء الممارســـة الجمالية في التربية العربية.

القسم الأول

(الإطار المنهجي للدراسة)

مبررات الدراسة:

حين استقر الرأي على أن أجعل من مفهوم الخبرة الجمالية وأبعاده التربوية موضوعاً لهذه الدراسة، كنت في الواقع مدفوعاً إلى ذلك بالعوامل الآتية:

1- إن موضوع الجمال كان ومازال من أهم الموضوعات التي تداول عليها الفلاسفة منذ أقدم العصور حتى الآن يقلبونه على وجوهه المختلفة، وإن اختلفت الطريقة التي تناول بها القدامى من الفلاسفة هذا الموضوع عن تلك التي أرادها فلاسفة العصر الحاضر.

2- إن دراسة الخبرة الجمالية في فلسفة «جون ديوي» وانعكاساتها على الفكر التربوي وتطبيقاته المختلفة توفر لنا أرضية واسعة لفهم جوانب كثيرة من فلسفة «ديوي» التي أثرت بشكل مباشر في جسد التربية العالمية الإنسانية في ماضيها وحاضرها.

3- إن الدراسات التي ركزت في مضمونها على موضوع الخبرة الجمالية في فلسفة «ديوي» تُعدّ نادرة جداً، فضلاً عن غياب الدراسات التي تناولت الأبعاد التربوية لمفهوم الخبرة الجمالية.

4- وأخيراً كان مما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو التداخل الحاصل بين مفهومات الخبرة، علماً أن «ديوي» يشير إلى أن الخبرة تكون خبرة جمالية عندما تضفي على الأفعال والأحاسيس والأفكار المبعثرة الوحدة والاتساق، مع ملاحظة أن هناك استمراراً بين الخبرة الجمالية وغيرها من الخبرات الأخرى.

مشكلة الدراسة:

أصبح من المعروف أن للقيم الجمالية أهمية كبيرة في حياتنا، لأن الحياة من دون إحساس بالجمال لا تستحق أن تُعاش، وهنا يصبح الجمال قيمة روحية كبيرة، وظاهرة أصلية تكمن وراء كل الأشياء الموجودة في الطبيعة وفيما ينتجه الإنسان.

ولكن الملاحظ أن بعض ما هو موجود في واقعنا لا يليق بالوجود الإنساني، وحتى يتم للإنسان إدراك ذلك، لابد له أن يدرك معنى الخبرة الجمالية، وحتى يدرك معنى الخبرة الجمالية يجب أن نوضح له حاجته الماسة إلى تنمية الإحساس الجمالي والتذوق الفني، فضلاً عن تعليمه كيف يكتسب الخبرة في مجال الحكم الجمالي، ذلك أن الجمال وتنميته ضروري لحياة الإنسان في بيئته، على اعتبار أن الخبرة الجمالية هي دائماً خبرة بالطبيعة كما يقول «ديوي»، وبالتالي فإن الخبرة الجمالية تجعل من الإنسان ذا حس جمالي رفيع، إلى جانب ما يقوم به من أعمال، فيصبح مرهف الإحساس رقيق المشاعر.

وعليه فإن ندرة الاهتمام بالدراسات الجمالية عامة، وما يتصل منها بالتربية بشكل خاص، أدى إلى وجود أفراد فاقدين للحس الجمالي، ولذلك سوف تحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء على مفهوم الخبرة الجمالية وأبعاده التربوية في فلسفة «جون ديوي John Dewy» باعتباره من أبرز الفلاسفة والمربين في العصر الحديث الذين أعطوا لمفهوم الخبرة الجمالية مكانة رئيسية في فلسفاتهم، أملاً في تحسين الواقع الذي نعيشه، والذي طغت فيه المادة وسيطرت على جوانب حياتنا كافة.

تساؤلات الدراسة:

تسعى الدراسة الحالية إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية:

1- ما مفهوم الخبرة الجمالية وما معاييرها في فلسفة «جون ديوي»؟.

2- ما الأبعاد التربوية التي يعكسها مفهوم الخبرة الجمالية في فلسفة «جون ديوي»؟.

3- إلى أي حد يمكن أن تستفيد التربية العربية من آراء «ديوي» فيما يتصل بالخبرة الجمالية وانعكاساتها على الفكر التربوي وتطبيقاته المختلفة؟.

أهداف الدراسة:

تتبلور أهداف الدراسة الحالية في الآتي:

1- تحديد مفهوم الخبرة الجمالية ومعاييرها في فلسفة «جون ديوي».

2- بيان الأبعاد التربوية لمفهوم الخبرة الجمالية في فلسفة «جون ديوي».

3- وضع تصور مقترح يوضح كيف تستفيد التربية العربية من آراء «جون ديوي» في موضوع الخبرة الجمالية، وما يترتب عليها من ضرورة تنمية الحس الجمالي عند أجيالنا، وتعريفها بقيم ومبادئ الفن، وكيفية تذوقه، والحكم عليه، حتى يتمكنوا من بناء مستقبل مشرق جميل تكون قاعدته العريضة من المتذوقين للجمال والعاملين على خلقه.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من أهمية الموضوع الذي تتناوله، ومن ثم فإن أهمية دراسة مفهوم الخبرة الجمالية وأبعاده التربوية في فلسفة «جون ديوي» تتبلور في أنها:

1- تكشف النقاب عما تحمله أفكار الفيلسوف البراجماتي «جون ديوي» من ثراء لا يمكن أن ينكر، والتي نحتاج إلى التعرف إليها وإبرازها وفهمها، ومحاولة الاستفادة منها ما أمكن ذلك.

2- تدور حول موضوع هام في فلسفة التربية، وأن مثل هذا الموضوع يمكن أن يوفر لنا أرضية واسعة لفهم الجوانب الكثيرة من جسد التربية الأمريكية في ماضيها

وحاضرها.

3- تحاول الدراسة إلقاء الضوء على بعد هام من أبعاد شخصية الإنسان، ألا وهو البعد الجمالي، بهدف صقله وتهذيبه وتنميته، كي يدرك الإنسان بعد ذلك مظاهر الجمال في الطبيعة وفي الأعمال الفنية، وفي مظاهر السلوك المختلفة.

4- كما تكمن أهمية الدراسة الحالية في تزويد القارئ العربي بمادة علمية منفتحة فكرياً على العالم الغربي، فضلاً عن أن الدراسات المنشورة في ميدان «فلسفة التربية» تُعدُّ نادرة جداً، فالمتابع لما ينشر في المجلات التربوية العربية يلاحظ نقصاً واضحاً في هذا النوع من الدراسات، بعد أن تحولت صفحاتها إلى أرقام وجداول مع تقديري لما لهذه الأرقام والجداول من دلالات علمية، كما أن الدراسات في ميدان فلسفة التربية هي التي تساعد في نقد الواقع ورسم السياسات التربوية وتوجيهها وتنسيقها، وأن الاهتمام بمثل هذه الدراسات أصبح ضرورة ملحة من أجل إعادة الوعي لأنظمة التعليم العربي حتى تعمل إلى رسم فلسفة تربوية قادرة على الحياة، وقادرة على قيادة الحياة أيضاً، وهذا ما أشار إليه مراراً وتكراراً شيوخ التربية في العالم العربي أمثال: «عبد الله عبد الدائم» و«حامد عمار» و«عبد الفتاح جلال» وغيرهم...

منهج الدراسة:

طريقة تحليل المحتوى Content Analysis هي المنهج المتبع في هذه الدراسة، وقد عرفتها دائرة المعارف الدولية للعلوم الاجتماعية بأنها: «أحد المناهج المستخدمة في دراسة مضمون وسائل الإعلام المطبوعة أو المسموعة، وذلك باختيار عينة من المادة موضوع التحليل، وتقسيمها وتحليلها كمياً وكيفياً على أساس خطة منهجية منظمة».(Intrnational Encycolopedia of Social sciences, 1908, p. 579)

وتجدر الإشارة إلى أن استخدام طريقة تحليل المحتوى في هذه الدراسة، تتم بالصورة الكيفية لا الكمية، فلا تلجأ الدراسة هنا إلى خاصية «التكميم» أي التعبير عن مفهوم

معين بأرقام محددة، وإنما سيعمد الباحث إلى التنقيب في الوثائق والمؤلفات التي تتصل بفلسفة «جون ديوي» من أجل اكتشاف الأبعاد التربوية لمفهوم الخبرة الجمالية، والتي يسعى الباحث إلى إبرازها وتسليط الضوء عليها، ولذلك فقد مرت عملية تحليل المحتوى في هذه الدراسة في مرحلتين هما:

1- اختيار فلسفة «جون ديوي» كمذهب فلسفي يناسب العمل التربوي في الواقع الاجتماعي، ثم تحديد المراجع الأصلية التي عالجت هذه الفلسفة.

2- تحديد ما يقوله «جون ديوي» من أفكار في مجال الخبرة الجمالية، والسعي إلى معرفة انعكاساتها على الفكر التربوي وتطبيقاته المختلفة.

حدود الدراسة:

نظراً لاتساع الموضوعات التي اشتملت عليها فلسفة «جون ديوي» من جهة، ونظراً لتعدد الجوانب التربوية لهذه الموضوعات من جهة أخرى، فقد حصر الباحث دراسته الحالية في الحدود التالية، والتي يراها كفيلة بتحديد مسار دراسته والوصول بها إلى تحقيق أهدافها:

1- مفهوم الخبرة الجمالية في فلسفة «جون ديوي» باعتباره من المفاهيم التي أحاطها غموض كبير في أذهان الكثيرين، على الرغم من شيوع استخدامه وتأثيره في العملية التربوية.

2- حدد الباحث الجوانب التربوية لمفهوم الخبرة الجمالية والمتمثلة في: دور التربية الجمالية في تنمية القدرة على التذوق والاستمتاع وشغل أوقات الفراغ والإبداع، فضلاً عن دورها في تنمية الإدراك الحسي والعقلي فيما يتصل بمواضيع الجمال في الطبيعة، بالإضافة إلى دور التربية الجمالية في تنمية السلوك الأخلاقي.

وفي تناول الدراسة لموضوع الخبرة الجمالية سوف تحاول أن تتبين هذا الموضوع في

الإطار الفلسفي العام، ومن ثم سوف تتجه الدراسة إلى استيضاح الأبعاد التربوية لكل جانب من جوانب الخبرة موضوع الدراسة.

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسة الحالية لا تزعم أنها استطاعت الإلمام بجوانب الموضوع كلها، فالموضوع يتعذر على دراسة واحدة أن تقوم به أو تخوض فيه بدقة وتفصيل، وإنما هي محاولة للإمساك بأول الخيط لمعرفة تصور «جون ديوي» لمفهوم الخبرة الجمالية، بدءاً بواقعها الفلسفي، ثم تعرف أبعادها في مجال الفكر التربوي، فإذا ما نُظر إلى التربية بوصفها ميداناً تطبيقياً يستمد أصوله من عدة ميادين نظرية يمتزج فيها العلم والفن، لا تدعي هذه الدراسة أنها ستخوض في مجال التربية بوصفه ميدانياً تطبيقياً، بل هي دراسة لا تخرج عن كونها جهداً مبدئياً في ميدان فلسفة التربية، جلّ اهتمامها هو التعرف على جانب من جوانب فلسفة «ديوي» التي كان لها أثرها وأبعادها في مجال التربية العالمية والعربية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

الدراسات السابقة:

يوجد العديد من الدراسات النظرية التي تناولت مفهوم الخبرة الجمالية في الفكر الفلسفي، ففي عام (1975) ظهرت دراسة «عنايات يوسف» بعنوان: «مفهوم الخبرة الجمالية عند الفلاسفة وعلماء الجمال، تصنيفها وعلاقتها بالفرد» والتي هدفت في الدرجة الأولى لمعرفة مفهوم الخبرة عند مجموعة من الفلاسفة وعلماء الجمال أمثال: «بوزانكيت» و«فريدريك شيلر» و«جون ديوي»، مستخدمة في ذلك المنهج المقارن ومنهج التحليل الفلسفي، وتوصلت في نتائجها إلى أن هناك مساحة من الاختلاف في نظرة الفلاسفة لمفهوم الخبرة الجمالية وأرجعت ذلك للفلسفات المختلفة التي ينتمون إليها.

وفي عام (1979) ظهرت دراسة «عبد الرزاق حجاج محمد» بعنوان: «الجمال والقيم الجمالية عند صمويل الكسندر». وهدفت الدراسة إلى معرفة الإرهاصات الأولى التي

أثرت في فلسفة «الكسندر» فيما يتصل بالجمال والقيم الجمالية، ثم أشار الباحث لمفهوم الجمال وأهمية أن تكون القيم الجمالية في أعلى النسق القيمي، وقد استخدم الباحث منهج التحليل الفلسفي، وتوصل في نتائجه إلى ضرورة الاهتمام بالقيم الجمالية وتعزيزها في حياة الإنسان.

وفي عام (1986) ظهرت دراسة «وفاء إبراهيم» بعنوان: «الخبرة الجمالية بين برنارد بوزانكيت وجون ديوي»، هدفت من خلالها الباحثة إلى مقارنة آراء كل من الفيلسوفين فيما يتصل بمفهوم الخبرة الجمالية، موضحة كيف وظّف كل منهما مفهوم الخبرة الجمالية في الحياة اليومية، وقد استخدمت الباحثة منهج التحليل الفلسفي والمنهج المقارن للوصول إلى هدفها، وأكدت في نتائجها ضرورة الاستفادة من مفهوم الخبرة الجمالية في حياتنا العملية، وخاصة ما يتصل منها بالجوانب الاجتماعية والتربوية والأخلاقية.

وفي عام (1988) ظهرت دراسة «عادل محمد خليل» بعنوان: «فلسفة الجمال في الفكر العربي المعاصر»، حيث هدفت الدراسة إلى بيان المضامين الجمالية في الفكر العربي المعاصر، والمتمثلة بالقيم الجمالية وطبيعة المشاعر الانفعالية المصاحبة لها، فضلاً عن أن مضامين هذا الفكر تجلت في اللذة الجمالية حيث أشار الباحث إلى علاقة الحواس والقوى الإنسانية بكل من اللذة والمحبة والمعرفة، وعدد أنواع اللذات فذكر اللذة الحسية واللذة المعنوية واللذة العقلية واللذة الروحانية، ثم انتهى إلى الحديث عن اللذة الفنية وعلاقتها بتلك اللذات، وأخيراً انتهت الدراسة في نتائجها إلى أنه يوجد بعض المضامين الجمالية في الفكر العربي موضوع الدراسة، وأن على المفكرين العرب زيادة المساحة المخصصة للحديث عن القيم الجمالية وأهمية غرسها في نفوس الشباب العربي، وقد توصلت الدراسة إلى هذه النتائج باستخدام منهج التحليل الفلسفي.

علاقة الدراسات السابقة بالدراسة الحالية:

بداية لابد من الاعتراف أن فكرة الدراسة ومشكلتها تبلورت بعد الإطلاع على الدراسات السابقة على قلتها، فقد استفادت الدراسة الحالية من الدراسات السابقة على صعيد المنهج المستخدم وتحديد المشكلة والتعرف على كثير من أبعاد الإطار الفلسفي، الأمر الذي انعكست آثاره الإيجابية في ثنايا هذه الدراسة.

من ناحية أخرى تُعدّ هذه الدراسة مكملة للدراسات السابقة، غير أنها تختلف عنها من حيث أن الدراسات السابقة تناولت مفهوم الخبرة في مذاهب فلسفية غير الذي تتصدى له الدراسة الحالية (دراسة محمد) و(دراسة خليل)، كما تختلف هذه الدراسة عن الدراسات السابقة في بيان الأبعاد التربوية لمفهوم الخبرة الجمالية، وهذا هو الأساس في الدراسة الحالية، في حين أن الدراسات السابقة اقتصرت على دراسة المفهوم من الناحية الفلسفية فحسب، وما يميز هذه الدراسة عن غيرها من الدراسات، أنها تصدت لتقديم تصور مقترح لإنماء الممارسة الجمالية في التربية العربية، وهذا ما افتقدته الدراسات السابقة، وبطبيعة الحال فإن الخلاف المذكور بين الدراسة الحالية والدراسات السابقة أدى إلى اختلاف التساؤلات والأهداف والتي سوف نمر بها.

القسم الثاني

(الإطار الفلسفي)

مفهوم الخبرة الجمالية ومعاييرها

أولاً- فلسفة «جون ديوي» العامة:

عالجت فلسفة ديوي مواضيع عديدة، فهي فلسفة للحياة تؤمن بالتغيير، وتهدف إلى التطور والنمو، وتتخذ من الخبرة منهجاً لها في مواجهة الواقع ومعالجة مشكلاته، كما تتخذ من التفكير العلمي أداتها المنطقية من أجل الوصول إلى الحقيقة الموضوعية

بعيداً عن التخبط في متاهات الميتافيزيقا والانطباعات الذاتية، وهي حين تضع أهدافها تصوغها على ضوء الواقع وظروفه ومشكلاته، وهذا ما ينسجم مع طبيعة التغير وتطور الواقع، ومن هنا يرى «ديوي» أنه يجب وضع الأهداف بالاستناد إلى الظروف المحيطة.(جيوشي، 1999، 122).

وفيما يتصل بمفهوم «ديوي» للطبيعة الإنسانية، فهو ينكر أي ثنائية تفصل الإنسان عن الطبيعة، أو تفصل الجسم عن العقل، أو الذات عن المجتمع، كما أكد على قدرة الطبيعة الإنسانية على تغيير نفسها، بمالها من إمكانيات بحسب مقتضيات الموقف، ومن هذا المنطلق ربط «ديوي» بين الخبرة والنمو، فالخبرة الفعلية أو الإيجابية ليست موهبة فطرية، وإنما قدرة مكتسبة،(Richard, 1976, p.207)، وأن النمو الشخصي ليس هدفاً ثابتاً، وإنما هدف ديناميكي، لأن كل نمو يهدف إلى نمو أكثر (التغير نحو الأفضل)، فالخبرة تعلمنا أن كل شيء يتغير، وأنه لا يوجد ثبات أو سكون، لا في ميدان المادة، ولا في ميدان العقل.(بوشنسكي، 1992، 199).

ويرى «ديوي» أن الديمقراطية منهج وأسلوب للفكر والحياة، فهي شيء أكثر من مجرد شكل من أشكال الحكومة، لأنها أسلوب في الحياة الاجتماعية وفي الخبرة المشتركة القابلة للانتقال، واتساع المكان أو الحيز الذي يشغله عدد الأفراد المشتركين في اهتمام واحد، بحيث يرجع كل واحد منهم في فعله إلى أفعال الآخرين، وبحيث يتأمل كل واحد منهم فعل الآخرين ليوجه طبقاً لذلك فعله الخاص.(ديوي، 1978، 81) ويؤكد «ديوي» أن الديمقراطية باعتبارها صورة الحياة، لا يمكن أن تبقى ثابتة، وإذا كان لها أن تعيش فيجب أن تسير إلى الأمام، كي تواجه التغيرات الحاضرة والمستقبلية، ومن الجدير بالذكر أن «ديوي» ربط فكرة الديمقراطية بتلك العبارة التاريخية «الحرية، المساواة، الإخاء» تلك العبارة التي جاءت الثورة الفرنسية مطالبة بتحقيقها، حيث أكدت أنه يجب أن يكون جميع الناس أحراراً ومتساوين، وإلى ذلك ذهب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في 1948/12/10 في مادته الأولى:

«يولد الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء».(برنار، 1982، 141).

ومما يستحق التنويه والتحليل أن الهدف الذي تسعى إليه فلسفة «ديوي» هو «الكفاية الاجتماعية» حيث يقصد «ديوي» بالكفاية الاجتماعية من حيث هي غرض تربوي، تهذيب قوى الفرد، وتنشئتها على الاشتراك في الأعمال العامة اشتراكاً حراً كاملاً، وهذا الاشتراك يستحيل من دون ثقافة، كما أن من فوائده إنماء الثقافة، لأن الإنسان لا يستطيع التعامل مع الآخرين من غير أن يتعلم من هذا التعامل، أي من غير أن يقتبس وجهة نظر واسعة تساعده على فهم أشياء لا يستطيع فهمها من دونها».(ديوي، 1978، 110).

ويرى «ديوي» في كتابه «تجديد في الفلسفة» أن خير ضمان للكفاية الاجتماعية هو تحرير قدرات الأفراد واستخدامها في الابتكار والتخطيط وبُعد النظر والنشاط، فالشخصية يجب أن تتربى، ولكنها لا يمكن أن تتربى بتحديد عملياتها في الأمور الفنية والمتخصصة، أو في العلاقات الاجتماعية الأقل أهمية، وإنما التربية الكاملة لا تتم إلاّ إذا كان كل فرد يشارك في المسؤولية بحسب قدراته في تشكيل الأهداف والنظم الخاصة بالبيئات الاجتماعية التي ينتمي إليها.(ديوي، د.ت، 334-335).

ومما يستحق الإشارة أن الشغل الشاغل لـ«جون ديوي» هو تغيير القيم في المجتمعات الإنسانية، ويتذرع «ديوي» بالمنهج العلمي لإحداث هذا التغيير في القيم الأخلاقية والسياسية والجمالية وغيرها، ولهذا سمّى «ديوي» مذهبه بالمذهب «الأداتي» لأنه يتخذ من الفكر أداة للعمل على نحو يحقق للإنسان ما يبتغيه من تغيير في مجتمع صناعي ديمقراطي كالمجتمع الأمريكي الذي كان يعيش فيه، وكان «ديوي» يؤمن بأن كل شيء في حياة الإنسان قابل للتغيير إن دعت الضرورة إلى تغييره، فلابد من تغيير قواعد الأخلاق إن اقتضى الإصلاح هذا التغيير، ولابد من تغيير أسس السياسة والاقتصاد والتربية وكل شيء مما قد يُظنُّ به الدوام والثبات، في سبيل تغيير الحياة تغييراً يجعلها

أكثر ملاءمة لظروف العصر الجديد.(كامل، 1993، 118).

وهكذا لم يستطع «ديوي» إلاّ أن يكون بفلسفته داعياً إلى تغيير القيم، لأن الحياة التي أحاطت به كانت تسير بالفعل نحو التغيير، ويمكن القول بمعنى ما أن «ديوي» قد استبدل مشكلة الصدق بمشكلة القيمة، وهذا الاستبدال يرجع إلى نظرته الجديدة لمهمة الفلسفة بوجه عام، إذ يعتقد «ديوي» أنه إذا أرادت الفلسفة إصلاح نفسها فعليها أن تمتنع عن معالجة المشكلات التي تصدى لها الفلاسفة القدماء، وأن تصبح منهجاً لمعالجة مشكلات البشر، ولهذا أطلق صيحته بإعادة بناء الفلسفة بأن تعود إلى التجربة، وأن تنبذ المطلقات، وأن تحبذ فكرة التحكم في الطبيعة بوساطة الذكاء الخلاق للإنسان، ويرى «ديوي» أن كتاب «أصل الأنواع» «لداروين» يمهد هذا الطريق لإعادة بناء الفلسفة حين يدفعنا إلى أن ننظر إلى أنفسنا بوصفنا مخلوقات ينبغي أن يتكيف بعضها مع بعضها الآخر، ومع ظروف البيئة من أجل البقاء، وهذا التركيز على التكيف يتطلب في مجال الفلسفة انصرافاً عن «المذهب» إلى «المنهج»، وعزوفاً عن النتائج المحددة، إلى عملية «البحث» نفسها.(كامل، 1993، 118-119).

بناءً على ما سبق عرضه يمكن أن نميز ثلاثة محاور أساسية في فكر «ديوي»، ألاّ وهي: «الترابط العضوي» و«التطور» و«التجريبية»، أما المحور الأول فقد كان راسخاً في نفسه بتأثير دراسته الأولى للفيلسوف الألماني «هيجل» من ناحية، ولنظريات «هكسلي» البيولوجية من ناحية أخرى، وظل «ديوي» نتيجة لهذا التأثير، على اعتقاد -لازمه طيلة حياته- بالتفاعل العضوي والتماسك الوثيق بين الأشياء، وهو ما دفعه إلى معارضة كل ثنائية في الفلسفة: بين المادة والعقل، بين التجربة والضرورة، بين الواقع والقيمة...

أما المحور الثاني وهو «التطور» فقد تأثر فيه «بدارون» الذي لم يسلم من تأثيره أحد في ذلك العصر، ويتضح هذا التأثير في نظريات «ديوي» التربوية والاجتماعية

والسياسية على حد سواء.

وأما المحور الثالث، وأعني به «التجريبية»، فقد كان تراثاً مشتركاً في الفلسفة الأنجلوسكسونية بوجه عام، وفي الفلسفة البراجماتية الأمريكية بوجه خاص، وهذا ما يبرر تسمية نزعة «ديوي» «الأداتية» بأنها «تجريبية طبيعية» على وجه التحديد.

أما فيما يتصل بمحور الخبرة الجمالية فسوف نتحدث عنه بالتفصيل كونه المحور الأساسي الذي تتصدى له هذه الدراسة، مع ملاحظة أن الخبرة الجمالية لا تتضح إلاّ في ضوء مفهومات الخبرة الأخرى كالخبرة التربوية والعملية، فمناقشة هذه الخبرات لا يعني خلطها بالخبرة الجمالية، فكما بينت الدراسة سابقاً أن هناك استمراراً وتواصلاً بين الخبرة الجمالية وغيرها من الخبرات.

ثانياً- مفهوم الخبرة الجمالية ومعاييرها:

1- مفهوم الخبرة الجمالية:

يحاط مفهوم الخبرة بكثير من الغموض في أذهان الكثيرين على الرغم من شيوع استخدامه وتأثيره في العمل التربوي، ولعل «جون ديوي» من أكثر الفلاسفة المعاصرين استخداماً لهذا المفهوم، فهو يجعل من الخبرة أساساً للتربية ومعياراً للحرية، وأن الخبرة لا تكتسب ولا تنتقل من مكان إلى مكان، وهي ليست مرادفة للمعرفة أو المهارات، وإنما الخبرة تعني موقفاً من المواقف يعيشه الفرد مع آخرين، فيتأثر به ويؤثر فيه، وهو يتعلم نتائج هذا الموقف، حيث تصبح هذه النتائج جزءاً من سلوكه سواء أكانت معلومات أو مهارات أو اتجاهات.(عفيفي، 1970، 170).

وإذا كانت الخبرة الجمالية ليست إلاّ نوعاً واحداً من بين نوعية عامة من الخبرات، وإذا كانت الخبرة الجمالية هي الخبرة في أعلى درجات رقيها واتساقها، فإنه لا يمكن معرفة الأعلى إلاّ مروراً بالأدنى، ولذا فإنه لا سبيل إلى فهم الخبرة الجمالية عند

«ديوي»، إلاّ على ضوء فهم الخبرة في درجة من درجات وجودها الواضح غير المعقد.

والمستوى الواضح من الخبرة هو الخبرة كما تتجلى في الموقف المعرفي، وقد رفض «ديوي» التصور التقليدي للمعرفة كونها موقف مطابقة بين ذات عارفة وموضوع معروف، وأكد أن المعرفة هي المنهج العلمي ذاته، تجري معه وتتطور كما يتطور، أي أنها غير محددة وغير ثابتة،(عفيفي، 1978، 186)، وبالتالي فإن الخبرة تقاس بمدى ما تؤدي إليه من تغير في السلوك، وبمدى أثرها على الخبرات التالية،(Dewey, 1933, 236)، ويؤكد «ديوي» على ضرورة أن تكون كل خبرة وسيلة لإعادة تنظيم الخبرة التالية وإعادة بنائها، مما دفعه إلى القول في معظم مؤلفاته: إن التربية للخبرة وعن طريق الخبرة وفي سبيل الخبرة.(ديوي، 1954، 22).

وينظر «ديوي» إلى التربية على أنها عملية تجديد بناء الخبرة، خبرة الفرد وخبرة المجتمع، والواقع أن هذه النظرة تتمشى مع نظرية النمو الطبيعي والاجتماعي، فالتربية حسب هذه النظرية عبارة عن سلسلة خبرات تؤدي كل خبرة إلى أخرى، فتتسع ارتباطات واتصالات الفرد بالمحيط وتنمو ثروة المعاني عند الفرد -معاني الأشياء والظواهر الطبيعية التي يختبرها الإنسان- وبذلك يكتسب الفرد سيطرة وقدرة في توجيه الأمور فيكيف ما حوله وفقاً لاحتياجاته، كما أنه هو نفسه يتكيف وفق ما يحيط به.(العراقي، 1984، 195-198).

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا: ما طبيعة التكيف الذي يؤكده «ديوي» مراراً وتكراراً؟. إن الإجابة عن هذا التساؤل تتضح من خلال مناقشة ديوي للكفاية الاجتماعية التي يرى فيها القدرة على الاشتراك في تبادل الخبرة، فهي تشمل كل ما يزيد في قيمة خبرة الفرد بالنسبة للآخرين، وما يساعد الفرد على الإكثار من الاشتراك مع غيره في عمليات الحكم والاختيار، فالمقدرة على إنتاج الفن والاستمتاع به والاستعداد للأخذ

بضروب التسلية، والاستفادة من وقت الفراغ على خير وجه، تُعد عناصر في المواطنة أعظم أهمية من العناصر التي تتبادر إلى الذهن عادة عند ذكر المواطنة، وبالتالي فإن الكفاية الاجتماعية ليست أقل من جعل العقل اجتماعياً، (ديوي، 1978، 110) بعبارة مختصرة، إن الكفاية الاجتماعية هي «تهذيب قوى الفرد ليتمكن مختاراً من الاشتراك في الأعمال العامة بملء حريته وإرادته، وهذا يستحيل من دون ثقافة». (ديوي، 1928، 34)

ويؤكد «ديوي» أن أفكارنا هي وسائلنا لتحقيق التكيف، وعن طريق الأفكار تتحول الفكرة إلى أداة تعيد تنظيم الوسط المحيط، أي أن الأفكار وسيلة لأن تعيد للخبرة وحدتها واتساقها وقوتها، ويكون دورها كذلك وظيفياً، فهي تنقل الخبرة المتصارعة المفككة إلى خبرة موحدة متكاملة.(ديوي، 1960، 6-9) نستنتج من ذلك أن الخبرة ليس هي الأساس، وإنما فكرة التكيف، والسؤال الذي أصبح ملحاً: **ما الخبرة الجمالية عند «جون ديوي»؟**.

يقول «ديوي»: إن الخبرة الجمالية هي التي تضفي على الأفعال والأحاسيس والأفكار المبعثرة الوحدة والاتساق، لأنه في كل خبرة عقلية أو عمل من الأعمال التي يقوم بها الإنسان، جانب جمالي يرجع إلى الإنسان نفسه والنظام الذي يسير عليه. (يوسف، 1975، 35) مع ملاحظة أن هناك استمراراً بين الخبرة الجمالية وغيرها من الخبرات الأخرى، وأن الخبرات غير الجمالية تتضمن صفة جمالية كما تتضمن الخبرات الجمالية فكراً أو نشاطاً، ومما يؤكد صفة الخبرة سواء أكانت جمالية أو عقلية أو عملية هو سيطرة صفة من هذه الصفات دون إبعاد الصفات الأخرى إبعاداً تاماً. (النجيحي، 1984، 467).

ويؤكد «جون ديوي» ذلك بقوله: «إن للمفكر لحظته الجمالية، وهي تلك اللحظة التي لا تظل فيها أفكاره مجرد أفكار، بل تستحيل إلى معان أو دلالات مندمجة في صميم الموضوعات، وكذلك الفنان يقوم بعملية فكرية ربما لا تقل عن تلك التي يقوم بها

الباحث العلمي، كما نجد أن الفنان يحقق فكره في صميم الوسائط الكيفية التي يباشر عمله فيها».(ديوي، 1962، 30).

2- معايير الخبرة الجمالية في فلسفة «ديوي»:

إذا كان لابد من تكوين نظرية للخبرة الجمالية كي يتسنى لنا بناء التربية عليها، وجب علينا مناقشة وتحليل المبادئ التي تساهم في تكوين هذه النظرية، أي المعايير التي على أساسها تتكون الخبرة، وهذه المعايير هي:

أ- مبدأ التحول في الخبرة الجمالية:

فالخبرة التي تنسجم مع حياة الإنسان ليست نهائية، وإنما كل خبرة جمالية جديدة يكتسبها الإنسان من محيطه يفترض أن تُعدل الخبرات السابقة لها، وبالتالي فإن هدف التربية الجمالية يتبلور في تمكين التلاميذ من إعادة تنظيم أحاسيسهم ومشاعرهم ومعارفهم واتجاهاتهم نحو خاصية الجمال في الوجود، وذلك في سياق الخبرات التي يعيشونها داخل المؤسسة المدرسية وخارجها، شرط أن يقوم هذا التنظيم على حقيقة مفادها أن الخبرة الجمالية ليست ثابتة بل متحولة نتيجة لتغير طبيعة العلاقات والعناصر التي تشكلها، مما يتطلب من الإنسان أن يعرف كيف يتعلم إدراك العلاقات الجديدة. (Childs, 1986, 110).

ب- مبدأ الاستمرار أو تواصل الخبرة الجمالية:

فالخبرة الجمالية لا تقف ولا تنتهي مادام الإنسان في تفاعل مستمر مع بيئته، بل أن مبدأ استمرار الخبرة الجمالية أو تواصلها يتضمن المبدأ السابق الذي يؤكد تحولها وتطورها، إذ يعني أن الخبرة الحاضرة تأخذ من الخبرة الماضية وتستفيد منها، وتشترك معها في عوامل مختلفة، كما أنها تؤثر على الخبرة اللاحقة لتتجه بها إلى مستوى أفضل، وهكذا ينبغي أن تكون الخبرات التربوية سلسلة متصلة

الحلقات.(Childs, 1986, 110-111) وتجدر الإشارة إلى أنه في سياق هذا الاستمرار تتكون الرؤى الجمالية في أنماط سلوكية ذات طابع جمالي يمارسها الإنسان في مواقف حياته المتجددة، وفي الوقت نفسه يعمل على تعديلها وتقويمها، وإن تتطلب الموقف تغييرها.(Samnel, 1976, 87).

ج- مبدأ تكامل الخبرة الجمالية:

يقصد بمبدأ تكامل الخبرة الجمالية هنا أن الخبرة تتطلب استجابة متكاملة من المتعلم، أي معايشة المتعلم للخبرة من جوانبه كافة (الحسية والجسمية والعقلية والنفسية...)، وذلك لأن الخبرة في حقيقة أمرها تتضمن كل الجوانب الإنسانية مجتمعة، ولابد أن يمر بها الإنسان في ممارسة الخبرة حتى يتحقق الهدف المنشود منها. (بدران وآخرون، د.ت، 170)

ويؤكد «ديوي» في كتابه «الفن خبرة» أن العقل المؤدي إلى إبداع فني أو جمالي – وهو ما يسميه بالفعل الجمالي – لابد من أن يكون فعلاً قائماً على أساس من اتصال الفرد ببيئته، وأن ينطوي على تفرد أو إبداع متميز في التعامل مع المواد المحيطة به، وأن يقوم بعملية تنظيم للمواد والعناصر، وهذا يعني ضرورة امتلاك أي خبرة سواء أكانت خبرة ذهنية أم خبرة عملية لتلك العناصر حتى تكون هي نفسها تامة ومكتملة، ومما يستحق الإشارة أنه ليس هناك من فارق – حسب ديوي – بين مثل هذه الخبرات والخبرات الجمالية، إلاّ من حيث العناصر المستخدمة في كل منها، فكل خبرة ذهنية أو عملية لها طابعها الجمالي، حيث تملك تكاملاً باطنياً وإشباعاً ذاتياً نصل إليهما بفعل حركة متسقة منظمة، أما ما يتصل بالطابع الجمالي في الخبرة فإنه رهن بإبداع جديد.(ديوي، 1962، 86).

ومن هذا المنطلق يبني «ديوي» فكرته الأصلية عن «الخبرة السوية» على مفهومه للخبرة الجمالية فيقول: إن لهذه الخبرة بصفة عامة طابعاً جمالياً، وإلاّ لما كان في

الإمكان تنظيم عناصرها وصياغة موادها على صورة تجربة موحدة متسقة متماسكة، وليس من الممكن – في داخل التجربة الحية السوية – فصل العناصر العملية والانفعالية والعقلية بعضها عن بعض، بل لابد من اعتبار هذه التجربة كلاً موحداً يربط الجانب الانفعالي بين أجزائه، ويكشف الجانب العقلي عن دلالته، ويوضح الجانب العملي ما يحدث من تفاعل بين صاحب هذه التجربة وبين أحداث البيئة المحيطة به. (إبراهيم، 1966، 100-101) وهذا يعني أن التكامل في الخبرة الجمالية يتطلب سلوكاً ذكياً، لأن مثل هذا السلوك هو الذي يُحدث التكيف داخل الشخصية الإنسانية وخارجها، أي بين دوافع ومطالب وحاجات الإنسان من جهة، وبين ظروف بيئته من جهة ثانية، (Red Fern, 1986, 45) ومن هنا فإن العلاقة التي تميز علاقة الإنسان بالعالم علاقة مبدعة، لأن الإنسان يحدث تغييرات في أشياء العالم الفيزيائي، كما أنه يبني علاقات جديدة في الوسط الاجتماعي، ويحدث نوعاً من التوازن الجدلي بين الذات العارفة وموضوع المعرفة، وإذا ما استطاع الإنسان فعل ذلك نتيجة لخبراته الجمالية، فإن أفعاله وسلوكه سوف تكتسب طابعاً جمالياً بالضرورة. (جيوشي، 1999، 115).

د- مبدأ التفاعل في الخبرة الجمالية:

لا تقتصر الخبرة الجمالية على المعايير سابقة الذكر فقط، وإنما هناك وجه آخر للموضوع، فالخبرة الجمالية لا تحدث في داخل الشخص فحسب، بل تعمل في سلوكه الذي يؤثر في اتجاهاته وأحاسيسه ومشاعره، إلاّ أن الأمر أيضاً لا يقتصر على ذلك، فلكل خبرة جانب فعال، وما نراه واضحاً في الفرق بين الحضارة والهمجية مرده لأن الخبرات الجمالية السابقة ومؤثراتها، كان لها أثرها في الحالتين، مما يؤكد أثر الظروف الموضوعية التي يُكتسب فيها أثر مثل هذه الخبرات.(بدران وآخرون، د.ت، 169).

وعليه فإن الخبرة الجمالية إذا لم تتمكن من أن تحدث تفاعلها الإيجابي، فإنها سوف

ترتد في يوم ما، بمعنى أن أثر الخبرة – نتيجة لتفاعلها – ينتقل ويتبلور في صورة جديدة ليتفاعل مع البيئة من أجل الخروج بخبرات جديدة تتفاعل بدورها لينبثق عنها خبرات جديدة وهكذا...

أما إذا ما حطمت الظروف الخارجية الخبرة الماضية فإن خبراتنا – سواء أكانت نتاج دول نامية أم متقدمة – سوف ترتد فترة من الوقت بحيث تصبح فيها كخبرة الشعوب الهمجية، أي أننا نعيش منذ مولدنا إلى مماتنا بفضل ما أُنجز وانتقل إلينا وأضفنا إليه، أو حذفنا منه أو عدلنا فيه من ألوان النشاط الإنساني السابق، فإذا ما تجاهلنا هذه الحقيقة كانت نظرتنا للخبرة نظرة سطحية يغيب عنها مبدأ التفاعل، لذا فإن المأمول من القائمين على رسم سياساتنا التعليمية التأكيد على هذا المبدأ (التفاعل) في العملية التربوية والتعليمية، وخاصة ما يتصل منها بالتربية الجمالية.(بدران وآخرون، د.ت، 169-170).

القسم الثالث

(الإطار التربوي)

الأبعاد التربوية للخبرة الجمالية

الخبرة والتربية الجمالية:

يرى «برتراند رسل Bratrand Russel» أن التربية الجمالية لا تشمل فقط كل ما نعمله لأنفسنا، أو ما يعمله الآخرون لنا بقصد تنشئتنا وتقريبنا من درجة الكمال بقدر المستطاع، ولكنها فوق ذلك تشمل الآثار غير المباشرة التي تؤثر في أخلاقنا وطباعنا ومواهبنا الإنسانية، وكل ما يساعد على صقل الشخصية الإنسانية ويخرجها بالشكل الذي ينسجم والقيم الجمالية.(Russel, 1977, 55).

ويتفق «ديوي» مع ما يذهب إليه «رسل»، ويؤكد على أن تكون الخبرة الجمالية مناسبة للحاجات الواقعية للطفل، ولقدراته في مرحلة نمو معينة، وأن تؤدي إلى نمو

شخصيته من جوانبها كافة.(النجيحي، 1984، 475) وإلى ذلك يذهب «ديفرين Dufrenne» بقوله ليست الخبرة الجمالية فكرة ذات قواعد ثابتة، وليس مفهومها ذا قانون خاص، بل الخبرة الجمالية هي ما يصبح جمالاً خلال العمل الفني.(Samuel, 1976, 33)

ومن أجل معرفة الأبعاد التربوية للخبرة الجمالية، لابد من مناقشة دور التربية الجمالية في تنمية البعد الجمالي لبعض جوانب الشخصية الإنسانية كما جاءت في فلسفة «ديوي»، وفيما يلي بيان لذلك:

1- دور التربية الجمالية في تنمية القدرة على التذوق الفني:

يرى «ريد فيرين Red Fren» أن الخبرة الجمالية تعمل على إثارة موضوع التذوق الفني في كل ما يُعدُّ قيمة جمالية، من زاوية ما تحمله القيمة الجمالية من رهافة وصدق، فالجمال قد يتكشف لنا كرغبة أو ميل، كما يتجلى لنا من خلال الوجدان الذي نلتمس لديه المبدأ المعياري الذي يعادل تقديرنا وحبنا للفن، ويضمن لنا مدى صدقنا في الإحساس الذوقي.(Red Fern, 1986, 74).

والمستقرئ لفلسفة «ديوي» التربوية يجد أن التربية الجمالية عنده تهدف إلى فهم الفنون وتذوقها والاستمتاع بها، فضلاً عن أنها تعمل من أجل اكتشاف ميول الفرد واهتماماته ومهاراته الفنية وتنميتها عن طريق العملية التربوية.

ويمكن القول: إن «ديوي» بإعطائه أهمية خاصة لتربية الذوق الفني أراد أن يلقي الضوء على أهمية الوعي الجمالي، حيث يسوق مثالاً لذلك انتشار الثقافة الفنية لدى المجتمع، سواء بازدياد عدد الفنانين المتخصصين الذين يقع على عاتقهم بناء التراث الحضاري الإنساني، أو بارتفاع مستوى الذوق الفني لدى أكبر عدد من أفراد المجتمع، غير أن ذلك – حسب ديوي – لن يكون إلاّ عن طريق التربية الجمالية، ومن خلال الممارسة والتهذيب الفني القائم على المشاهدة والتأمل، حتى يستطيع التلاميذ داخل المؤسسة المدرسية استيعاب مواطن الجمال في كل من الطبيعة والعمل الفني، ويعقب

«ديوي» على رؤيته هذه بالإشارة إلى ضرورة امتلاك التلاميذ للخبرات الجمالية التي تُعد المدخل الوحيد لاستيعاب مواطن الجمال في الوجود.(ديوي، 1954، 23-24).

ومن هذا المنطلق فإن الحكم الجمالي على الأشياء الجميلة يتطلب من التربية الجمالية أن تبلور وعياً جمالياً لدى التلاميذ يستطيعون من خلاله إدراك الشيء الجميل ذاته وتذوقه، فالوعي الجمالي للذات المدركة يكون ممثلاً في خبرتها الجمالية، والتي - فيما يرى زكريا إبراهيم – تؤهلنا في كثير من الأحيان للقيام بألوان جديدة من الإدراك،(إبراهيم، 1977، 169) ومن ثم فإنه لكي تستقيم أحكامنا الجمالية وتقوم بدورها في إبراز الجوانب الجمالية ينبغي توافر ثلاثة أمور هامة هي:

أ- الصفات الجمالية التي تحدد وجود الجمال في موضوع ما.

ب- الذات المدركة (المتأملة – المتذوقة).

ج- المعايير والقيم الاجتماعية التي يفرضها المجتمع على الإنسان.

فتكون النتيجة أن يصبح الحكم الجمالي هو ثمرة طبيعية لذوق وفن واتجاه مجتمع ما، فالفرد يستوعب الجمال ويحس به، من خلال معاييره الاجتماعية، وهنا يندرج «علم الجمال» ضمن فلسفة القيم من حيث أنه لا يقف عند حد البحث الميتافيزيقي الصوري في حقيقة وجود الجمال كموضوع، أو البحث السيكولوجي في الإحساس والانفعال الإنساني بالجمال، لكنه يسارع في بحث القيم والمعايير التي يلتزم بها الإنسان في مجتمع ما، فيصبح الفن وليد المجتمع وخاضعاً بالضرورة للتنظيم الاجتماعي.(عباس، 1987، 30) وبالتالي يجب على التربية بشكل عام، والتربية الجمالية بشكل خاص أن تعمل على إكساب الأفراد الخبرات الجمالية التي لا تتعارض مع المعايير والقيم الاجتماعية.

2- دور التربية الجمالية في تنمية الابتكار:

إن الاستمتاع التأملي بالجمال يجب ألا يفهم على أنه شيء سلبي، لأن الخبرة الجمالية على العكس من ذلك، فهي نشاط خلاق، يتضح ذلك في حالة الفنان الذي يجمع المواد

مع بعضها بطريقة جمالية بحيث تحقق شكلاً جميلاً، فمثل هذا العمل الخلاق دليل على القوة الابتكارية للشخصية الإنسانية، كما أن التقدير الجمالي عمل خلاق، لأن من يستجيب لموضوع جمالي يجب أن يمر بخبرة تشبه خبرة الفنان الذي يصنع الأشياء الجميلة، والذي يقدر الموضوع الجمالي قد يجد فيه معنىً مختلفاً عما وجده صانعه، غير أن التقدير الذي يوصف أنه عمل خلاق هو بناء خيالي أو استجابة لاستثارة الشيء الجميل، ومع ذلك يؤكد كثير من فلاسفة التربية – فينكس مثلاً – أن هناك مكوناً خلاقاً في الخبرة الجمالية سواء أكانت من النوع الأول الذي يقوم به الفنان، أم من النوع المشتق الذي يقوم به المستمتع.(فينكس، 1965، 665).

وعلى أساس العلاقة الجدلية بين الابتكار والخبرة، فإن أهمية التربية الجمالية تبدو واضحة، ذلك أنها تعمل على إكساب الخبرات اللازمة لذوي القدرات المختلفة كي يتمكنوا من القيام بالتعبير الجمالي، كما أنه لا يحدث الابتكار من دون تحصيل وتفكير ومعاناة.(ديوي، 1954، 22).

3- دور التربية الجمالية في تنمية الإدراك الحسي:

يؤكد «فينكس Phenix» أن الخبرة الجمالية تتضمن المدى الكامل للإدراك الحسي والمجموعة الكاملة للمواد المادية التي يمكن أن تثير الحواس، ويرى أن مثل هذا التنوع الحسي – سمعي بصري ذوقي لمسي شمي – يتيح للفنون صفات مختلفة وكثيرة من الخبرة، وأن أنواعاً كثيرة من الأشياء المادية يمكن أن تكون مادة للموضوع الجمالي، لأن كل عضو من أعضاء الإدراك الحسي يمكن أن يُدعى للعمل في عملية التقدير الجمالي، وبالتالي لا تقتصر الخبرة الجمالية على ميدان ضيق لطريقة من طرق الإدراك، ولكنها تقوم على جميع مكونات الحساسية الإنسانية.(فينكس، 1965، 658).

ومن هذا المنطلق أشار «هربرت ريد Hrbirt Red» إلى ضرورة تربية الحواس باللفظ

«الشعر والأدب»، والسمع «الموسيقى» والرقص «الحركة والعضلات»... الخ، ذلك لأنها تشكل معاً المعرفة الكاملة بالحقيقة، وهو نوع من التربية يجب أن نسميه التربية الجمالية للحواس أو التربية الجمالية الحسية، غير أن بعض المدارس الفكرية – كالرومانسية مثلاً – رفضت ما يسمى بالتربية الجمالية الحسية، وأكدت أن الخيال المرتبط بالقوى الوجدانية للإنسان هو الذي يوصل الإنسان إلى الحقيقة. (غانم، 1991، 134) وإلى ذلك ذهبت المثالية الكانتية عندما أكدت أن المحاكمة الجمالية لا تنبع من العقل – كالقدرة على الفهم – ولا من التأمل الحسي وأشكاله المتنوعة، بل تنبع فقط من المشاركة الحرة بين العقل وقوة التخيل.(اوفسيانيكوف، 1979، 255).

وتجدر الإشارة إلى أن «ديوي» يرفض نظرة المثالية والرومانسية بخصوص العلاقة التي تربط الخبرة الجمالية بالإدراك الحسي، حيث يرى أن الفن يجد أساساً له في الخبرة الحسية التي تؤدي إلى أن تكون الوظائف الأساسية للفنون في التربية هي تنمية وترقية الإدراك الحسي، فالتربية لا تعمل من أجل تعليم الناشئة كيف تفكر وتعمل فقط، بل تعمل أيضاً على جعل الإنسان يستمتع بالاستخدام المتميز لإمكانياته الحسية، لأن الإنسان الناضج يعرف كيف يرى ويسمع ويلمس ويشم ويتذوق مع الحساسية اللازمة، وبالتالي فإن استجاباته للمثيرات الحسية عميقة لا سطحية.

ومن هنا يجب أن نمنح الفرد الإنساني – عن طريق التربية الجمالية – احتراماً وتقديراً عميقين للأشياء المادية وللجسم الإنساني، حيث إن موضوع الجمال هو بالضرورة مادي، وحيث إن الأعضاء الحسية في الجسم هي الوسيلة التي يتحقق فيها الوعي بالموضوع، وبالتالي فإن الخبرة الجمالية هي الوسط بين العقلي والمادي، وهي التي تحفظ الاتزان بين الفكر الخالص – الأفكار غير الواقعية – والنشاط العملي، فضلاً عن أنه في التقدير والخلق الجماليين يتحد الروحي والمادي اتحاداً مباشراً، ونتيجة لذلك فإن التأكيد الجمالي في التربية يساعد على الاحتفاظ بالصفة الوحدوية في الخبرة الإنسانية.(فينكس، 1965، 658-659).

4- دور التربية الجمالية في تنمية الإدراك العقلي:

تؤكد الدراسات التربوية والنفسية على أهمية التربية الجمالية في تنمية الإدراك العقلي، وأن هذه التربية بما تحدثه من خبرات جمالية يجب أن تتوجه إلى عقل المتعلم، والكشف عن استعداداته وإنمائها، وإكسابها مهارات عقلية كالتفكير السليم والقدرة على الإبداع وإتقان أسلوب حل المشكلات.

ويشير الدكتور «فاخر عاقل» إلى أن الطفل يتعرض للتأخر العقلي عندما لا تهتم الأسرة بالتربية العقلية الصحيحة، ولا تؤمن بأهمية الخبرة الجمالية كمدخل ضروري لتنمية مهارات التفكير العقلي السليم، وقد دلت الدراسات الحديثة أيضاً أن الذكاء البشري ليس أمراً جامداً ساكناً محدوداً، بل إنه قدرة متحركة قادرة على النمو والتزايد إذا ما توافر لهذه القدرة الخبرات الجمالية اللازمة، وأن مثل هذه الخبرات لابد أن يتوافر لها أيضاً الظروف البيئية الجيدة التي تعمل على تكوينها من خلال التربية الجمالية المناسبة.(عاقل، 1983، 69)

وقد أفاض العقليون في بيان أهمية التربية الجمالية في عملية الإبداع الفني، فذهب «جويو» في تعريفه للجمال إلى القول: «إنه إدراك أو فعل ينعش الحياة في صورها الثلاث: العاطفة والعقل والإرادة، وما لذة الجمال إلاّ الشعور بهذا الانتعاش.(جويو، 1948، 11).

ومما يستحق التنويه والتحليل أن «ديوي» قد أعطى مساحة واسعة للتربية الجمالية كي تعمل على تنمية الإدراك العقلي السليم لدى الناشئة، وأشار إلى أن العقل لم يعد شيئاً يتخطى الخبرة ويتعداها، وإنما أصبح العقل هو التفكير الذي تتعدل به الخبرات الماضية وتضبط به الخبرات الحاضرة، كما أصبح التفكير – بفضل التربية الجمالية – شيئاً أصيلاً في الخبرة، والعامل الموجه لمجراها.

ويؤكد «ديوي» أن من وظائف التربية الجمالية أن تجعل الفرد قادراً – من الناحية العقلية – على إعطاء الخبرة معنى، ويؤكد ما فيها من علاقات وارتباطات، ومن هنا يربط «ديوي»

بين الناحية الجمالية والفكرية والأخلاقية في الخبرة، ويرى أن عمليـــة الإدراك العقلـــي لا تنمو إلاّ بخاصية التكامل، لأن جوانب الخبرة كلها متضمنة في خبـــرات الحيـــاة اليوميـــة، ومن هنا نفهم لماذا ينتقد «ديوي» الاتجاه الذي ينتزع من الفنـــون العمليـــة تلـــك القيمـــة الجمالية، والذي يستبعد الخبرة الجمالية من حياة الناس الذين لا يرتبطون بـــالفنون الجميلـــة ارتباطاً كبيراً، فالفن عند «ديوي» متضمن –إنتاجاً وتذوقاً– في جميـــع خبـــرات الحيـــاة، والخبرة التي يسود عليها الجانب الفني -التي نسميها خبرة جمالية- هي مثـــل أي خبـــرة أخرى، تُعبر عن التفاعل القائم بين الفنان وعالم الأشياء والأحداث. (سمعان،1963، 51).

5- دور التربية الجمالية في تنمية السلوك الأخلاقي:

خاطب أحد المفكرين المعاصرين شباب القرن العشرين ورجال الغد قائلاً: «لقد نشأتم وترعرعتم في عالم تحول وانعطاف في المسيرة، وهو قادر على سحقنا، أو جعلنا نخطـــو خطوة جديدة إلى الأمام أشبه بالتقدم الذي أحدثه على وجـــه البـــسيطة ظهـــور «الإنـــسان العارف» ذلك أن القدرات التقنية لا تخضع لغايات أخلاقية، والناس كافة من كان مـــنهم ذا تفكير مادي أو روحي يتفقون على الإشارة إلى الخطر».(العوا، 1988، 47).

ومن هنا فإن المعرفة الأخلاقية والبحث الأخلاقي بل دراسة الأخلاق وما يندرج تحتها من أبحاث تصبح ضرورة ملحة توجبها مقتضيات التطور الإنساني الـــراهن، فـــضلاً عن نفعها الذي نحتاج إليه دوماً.

وقد أشار «لالاند LaLand» في موسوعته إلى أن مفهوم الأخلاق في الفكر الفلسفي أكثـــر شمولاً واتساعاً منه في الدراسات الأخرى، فبينما تقوم فكرة الأخلاق في النظرة العادية على اتباع قانون سلوكي محدد ومعين، فإن مفهوم الأخلاق من الناحية الفلسفية يمتد ليشمل ميادين الخبرة الإنسانية كلها، ومنها بطبيعة الحال الخبرة الجمالية.(لالاند، 837،1996-840).

ويرى بعض الفلاسفة أن الميزة الأساسية للصيغة الأخلاقية هي أن الأخلاق جزء من فلسفة القيم، غرضها تحديد قيمة مختلف أنواع السلوك الإنـــساني والـــسعي لإيـــضاح

المعايير التي تمكن من تحديد تلك القيم.(Wrigley, 1980, 43) وبما أن الأخلاق جزء من فلسفة القيم، فهي تؤثر في تحديد ملامح شخصية الفرد الإنسانية، وتحديد اتجاهاته إزاء مشكلات الحياة والعالم الذي يعيش فيه، كما أنها تُعد توجيهاً لحياة الفرد نحو الأفضل، وتطلعه على التغيير الثقافي الهادف والعميق، وبالتالي فإن للأخلاق دوراً بارزاً في تشكيل الإنسان وخاصة ما يتصل بنظرته الجمالية إلى العالم الذي يعيش فيه. (Hirst, 1974, 103).

ونظراً لأهمية الأخلاق في حياة الإنسان، فقد أكد «جون ديوي» على العلاقة الوثيقة بين الفنون والأخلاق بقوله: «إن الفن قد يكون أشد اتصافاً بالصفة الأخلاقية من الكثير من مظاهر السلوك الأخلاقي، وآية ذلك أن الأخلاقيات السائدة إنما هي تميل بكل تأكيد إلى أن تصبح بمثابة إثبات للحالة الراهنة، أو هي انعكاسات للعرف الاجتماعي أو تدعيم للنظام القائم، ولقد كان دعاة الأخلاق الذين عرفتهم البشرية شعراء، ومن هنا فقد أصبح الفن بمثابة وسيلة لاستبقاء الإحساس بالغايات التي تتجاوز الحقائق الواضحة». (ديوي، 1962، 70-81).

ويرى «فينكس» أن الذين يعتقدون بالتطابق بين الجمال والخير، يؤمنون بأن ما هو حق هو في الواقع رائع من الناحية الجمالية، وأن الاستمتاعات الشريرة تؤدي في النهاية إلى الوهم والخداع، كما أن الارتفاع بالمستوى الأخلاقي للشخصية الإنسانية يتطلب تربية جمالية سليمة، باعتبار هذا النوع من التربية وسيلة من وسائل التحسن الأخلاقي، الذي يتمثل في تنمية إحساسات جميلة معينة تنسجم مع أفضل المثل العليا للشخصية الإنسانية وسلوكها. (فينكس، 1965، 673-674) نستنتج من ذلك أن التربية الجمالية تتصل بالتربية الأخلاقية اتصالاً كبيراً، فالفرد الذي تبلورت في ذهنه العاطفة الجمالية يتطلع إلى مثالية سامية (مثالية الحق والخير والجمال)، فيصور الفضيلة في شكل جذاب يسعى لأن يكون خلقاً فيه، كما يصور الرذيلة في شكل قبيح لا يستسيغ التخلق به.

6- دور التربية الجمالية في تنمية الاستمتاع وشغل أوقات الفراغ:

يؤكد فلاسفة الجمال أن الخبرة الجمالية عامل إيجابي وفعال، لأن الشخص الذي يستقبل الجمال ويقدره يستطيع أن يخرج من ذاته ليقدر جمال الطبيعة ويستمتع به، وهذه القدرة على الاستجابة لجمال الطبيعة وجمال الفن بصفة عامة هي التي تستطيع التربية الجمالية أن تنميها في الفرد، وذلك بأن تتيح للتلاميذ الظروف التي يمكنهم فيها أن يستمتعوا بالجمال في الطبيعة، وأن تشجع أولئك الذين يشعرون بهذا الجمال أن يبتهجوا به وأن يعبروا عنه، فما يعبر عنه بعضهم يرغب الآخرون في رؤيته والاستمتاع به. (النجيحي، 1984، 475-476).

ويؤكد «النجيحي» أن التعبير يجب ألا يكون إجبارياً، كما أن الاستمتاع لا يمكن أن يكون كذلك، فتنمية الذوق والحاسة الجمالية عن طريق مبادئ تعليمية منظمة لا يمكن أن ينمو إلاّ إذا استطاع الطفل نفسه أن يستجيب له نتيجة قبول داخلي، ولكننا نستطيع في المدرسة والمنزل وفي المجتمع على حد سواء، أن نجعل الاستمتاع الجمالي أكثر اتساعاً، وذلك بأن نخبر الأطفال أين توجد الخبرة الجمالية وكيف تكون جمالية، كأن نخبرهم – مثلاً – بأن أزهار معينة توجد في أماكن وأزمنة معينة، أو أن أوراق الخريف يبدو جمالها واضحاً في هذه الزيارة لتناسقها وانسجامها مع المنظر الطبيعي كله. (النجيحي، 1984، 476).

وعليه فإن كلاً من المدرسة والمنزل قادران على شغل أوقات فراغ التلاميذ من خلال تنمية الحاسة الجمالية لديهم التي تدفعهم بدورها إلى زيارة الحدائق والمتاحف والمكتبات والنوادي الثقافية، وهذه كلها عناصر تساعد في شغل أوقات فراغهم، تلك الأوقات التي أصبحت عاملاً أساسياً في جر الشباب إلى المعاصي والجرائم والانحرافات السلوكية، وقد أظهرت كثير من الدراسات أن الأفعال الإنحرافية يرتكبها الشباب أثناء وقت الفراغ، كما أن أوقات الفراغ إذا لم تُستغل بشكل صحيح فإنها تؤدي

إلى وجود حالة من الملل في حياة الشاب، وهذا بدوره يؤدي إلى القلق والإحباط والاكتئاب، وفي النهاية إلى أمراض نفسية تتطلب العلاج، فضلاً عن تفكك علاقة الشاب مع أسرته والمجتمع. وإذا ما أدركنا خطورة المشكلة (مشكلة أوقات الفراغ)، عندها لابد لنا من إدراك أهمية التربية الجمالية وتوظيفها في معالجة هذه المشكلة من خلال تنمية الخبرات الجمالية لدى الشباب لأن مثل هذه الخبرات هي التي تدفعهم إلى الاستمتاع بالطبيعة وشغل أوقات فراغهم بالطريقة المثلى.

القسم الرابع

(نتائج الدراسة ومدى الاستفادة منها في التربية العربية)

نتائج الدراسة:

1- حاولت الدراسة من خلال إجابتها عن سؤال البحث الأول والمتمثل في معرفة مفهوم الخبرة الجمالية ومعاييرها في فلسفة ديوي إجلاء الغموض الذي أحاط بمفهوم الخبرة الجمالية عند ديوي، حيث وضحت أن الخبرة الجمالية هي التي تضفي على الأفعال والأحاسيس والأفكار المبعثرة الوحدة والاتساق، كما أوضحت الدراسة من خلال مناقشتها للخبرة الجمالية أن ما يميز هذه الخبرة عن غيرها من الخبرات هو سيطرة الجانب الجمالي المتمثل في إعادة تنظيم الأحاسيس والمشاعر والمعارف والاتجاهات نحو خاصية الجمال في الوجود.

أما عن المعايير التي تحكم الخبرة الجمالية، فقد توصلت الدراسة إلى أنه توجد مجموعة من المعايير في ضوئها يمكن أن نقرر ما إذا كانت الخبرة جمالية أم غير جمالية، من هذه المعايير نذكر: مبدأ تواصل الخبرة الجمالية، وتكاملها وتفاعلها وتحولها، وتجدر الإشارة إلى أن هذه النتيجة كانت إجابة عن سؤال الدراسة الأول حول معنى الخبرة الجمالية عند ديوي.

2- أما فيما يتصل بسؤال الدراسة الثاني حول بيان الأبعاد التربوية للخبرة الجمالية، فقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أكدت في مجملها دور الخبرة الجمالية في تنمية القدرة على التذوق الفني، ودورها البارز في تنمية الابتكار والإدراك الحسي والعقلي، فضلاً عن توظيف التربية لمفهوم الخبرة الجمالية في تنمية السلوك الأخلاقي وشغل أوقات الفراغ.

3- وأخيراً ومن خلال إجابة الدراسة عن السؤال الثالث حول مدى استفادة التربية العربية من دراسة الخبرة الجمالية عند «جون ديوي» فقد أبرزت الدراسة بعض التوجهات التي تستند إلى ما أفرزته فلسفة ديوي التربوية، والتي يمكن الاستفادة منها على صعيد المدرسة والمنهج، وفيما يلي عرض موجز لها:

أ- التربية الجمالية والمدرسة:

من خلال مناقشة الدراسة لمفهوم الخبرة الجمالية وأبعادها التربوية في فلسفة «ديوي»، تأمل من المدرسة العربية الاضطلاع بما يلي والنظر إلى ذلك على أنه بمثابة توجهات تستند إلى ما أفرزته فلسفة «ديوي» التربوية:

- لابد أن تقوم المدرسة العربية بتعليم الطفل الخبرات الجمالية اللازمة، حتى يستطيع أن يحافظ على كيانه في العالم الذي يعيش فيه، ولذا يجب أن تُؤسس موضوعات المدرسة على ميول الطفل ونشاطه وخبراته الحالية، فإذا فعلت المدرسة العربية ذلك أمكنها أن تستغل نشاط التلاميذ، وأن تبعث فيهم رغبة صادقة في العمل فيقبلوا عليه فرحين مبتهجين.
- يجب أن تقوم المدرسة العربية بتوجيه قوة الملاحظة لدى الطفل، وتنمي فيه ولعاً ودياً نحو الصفات الجمالية في عالمه الذي يعيش فيه، وتزوده بوسط يحتوي على حقائق جمالية منوعة، كي يستطيع تحسس مواطن الجمال في الطبيعة وتذوقها.

- وعندما تنغمس المدرسة مع تلاميذها في الأنشطة المختلفة وتشاركهم فيها، عند ذلك فقط تستطيع أن تقدم لهم الخبرات التعليمية موحدة ومركزة وواضحة، وبذلك يصبح التعليم فناً، وتكتسب خبرة التلميذ صفة جمالية.
- ويجب على المدرسة أن تنظر إلى مجالات الفنون بصورها التعبيرية المختلفة، من الفنون التشكيلية والغنائية والحركية والموسيقية كمصدرٍ من مصادر المعرفة التي تحرك الوجدان والمشاعر الإنسانية وتهذب النفوس، على حد تعبير الإمام الغزالي إذ يقول: «من لم يهذبه الربيع وأزهاره، والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج، ليس له علاج»، ولا شك أن أي حركة للتغيير والتجديد التربوي تتطلب تهذيباً وتعميقاً للمشاعر والوجدان نحو عوالم المادة والكائنات الحية والبيئة والعلاقات الإنسانية، وبنية القيم وأفضلياتها وأنماط السلوك والأفعال.(عمار، 1995، 149) تأمل من القائمين على رسم السياسات التربوية والذين يسعون إلى التغيير والتجديد في أنظمة التعليم العربي أن يأخذوا بالحسبان البعد الجمالي للإنسان بحيث تخصص له مساحة واسعة في مناهجنا التعليمية وسياساتنا التربوية.

ب- التربية الجمالية والمنهج المدرسي:

من خلال مناقشة الدراسة لمفهوم الخبرة الجمالية وأبعادها التربوية في فلسفة «ديوي»، يمكن أن يضطلع المنهج المدرسي بالتربية الجمالية بإيلائه العديد من الاتجاهات الداعمة للأهمية التي تستحقها واعتماده إجراءات متنوعة وفعاليات نشطة تبدو فيما يلي:

- لابد من تخصيص مساحة واسعة للخبرة الجمالية في المنهج الدراسي، بحيث تكون متكاملة مع الخبرات المختلفة التي تقدمها المدرسة للتلاميذ، وأن يكون تناول الفن في التربية من خلال المنهج أكبر من مجرد الاستمتاع الوقتي بالعمل الفني، فعلى التلميذ الذي يريد أن يفهم عملاً فنياً أن يحصل على أقصى ما يستطيع معرفته من الفنان وحياته واتجاهاته، ومن الوطن الذي عاش فيه، ومما ساده من عادات

وتقاليد، فلكل فنان فرديته، ليس فقط بتكوينه السيكولوجي الذي ولد به، وإنما أيضاً ما كان في متناوله من تقاليد وأساليب عقلية مما ساد في أيام حياته.

- ولابد من ملاحظة أن الأعمال الجسمانية مثل التمرينات الرياضية والألعاب والرحلات، وما يقوم به التلاميذ من ملاحظات ومشاهدات في دروس مشاهدة الطبيعة، وما يعملونه من تجارب وغيرها، وما يترتب على هذه الأشغال من دروس تتوافق في أثناء قيام العين واليد معاً بوظيفتهما، فهي تدريب للانتباه وتمرين للخيال الابتكاري والإنتاجي وقوة الحكم الجمالي.
- لابد أن تختبر المدرسة المواد ونواحي النشاط القائمة، شرط أن يتم ذلك بنظرة جديدة، بحيث يتم نقل نقاط التأكيد إلى زاوية أخرى، فلا يجب أن يغيب عن بالنا أن يكون لكل موضوع في أحد أطوار نموه صفة جمالية من وجهة نظر الفرد المهتم به.
- ومن العلوم الأساسية التي يجب أن تتحكم مستقبلاً في منهج السنوات الأولى بالمدرسة: الأشغال اليدوية، والعلوم ومبادئ الطبيعة والفنون بأنواعها والتاريخ، لأن هذه المواد هي التي تعمل على توجيه ميول الطفل للخلق والابتكار بصورة حية، كما تحافظ على توجيهها وتهذيبها حتى تُكوِّن عنده عادات طيبة في التفكير والعمل، تلك العادات التي يحتاج إليها ليشترك اشتراكاً فعلياً مجدياً في الحياة الاجتماعية.

تأسيساً على ما سبق فإن الدراسة تقترح مجموعة من الأفكار تشكل في مجملها مدخلاً مهماً لتعزيز القيم الجمالية في التربية العربية منها:

1- صياغة فلسفة تربوية جديدة:

بداية لابد من الإشارة إلى ضرورة أن تصاغ فلسفة تربوية جمالية، تتناسب مع ما اختاره المجتمع من فلسفة اجتماعية، يكون فيها غاية الغايات في الفكر التربوي هو بناء الإنسان العربي في إطار خبرات مجتمعه الجمالية، وتكون التربية الجمالية هدفاً ووسيلة يتحقق من خلالها أسلوب حياة جميلة على أسس تربوية مخططة.

ولعل من ملامح هذه الفلسفة التربوية المنشودة تأكيد نمو الفرد نمواً متكاملاً من خلال تهيئة الفرصة له لاكتساب خبرات جمالية مربية في إطار اجتماعي، يوازن بين هذا النمو وبين صالح المجتمع وتقدمه وازدهاره، وهذا يقتضي أن يكتسب التلميذ الخبرة الجمالية من خلال المشكلات والمطالب الاجتماعية، وأن تعمل التربية الجمالية على تنمية ميول التلاميذ وإكسابهم اتجاهات وقيم إيجابية تسهم في بناء المجتمع. (Dziemidok, 1988, 16).

من ناحية أخرى تتطلب صياغة الفلسفة التربوية الجمالية الإيمان بالإيقاع المتسارع للتغير، وأن تكون الوظيفة الخاصة للفن تسهيل الاتصال بالعالم الجديد الذي يشكله الخيال الخلاق، لا أن يكون الفن مجرد تقليد لعالم الأشياء الواقعية، وإذا ما قصد من العمل الفني أن يمثل شيئاً آخر، عندها يجب أن يتيح نظرة خاصة أو تفسيراً وتحقيقاً للإدراك الحيوي للفنان، ولذلك يجب ألاّ يكون الفن تكراراً للأشياء كما هي، وإنما النظرة المتغيرة لعالم متغير، ومن هنا يكون هدف الفلسفة الجمالية المقترحة تنمية قدرات الخلق والإبداع عند التلاميذ من أجل بناء العالم وإعادة بنائه.

2- العمل من أجل تحرير التعليم:

مما لاشك فيه أنه من متطلبات الفلسفة التربوية الجمالية المقترحة إكساب الطلاب معنى التعاون وقبول الآخر وعدم نفيه، والإيمان بأن المعرفة والقيم نسبية، ولا قداسة في العلم، وأن التعدد في الأفكار والآراء لازم وضروري لاستمرار الحياة، بعبارة أخرى، هناك أهمية كبيرة لأن يكتسب الطلاب قيماً جمالية تناقض الشمولية والأحادية. وتجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن أن يتميز التعليم بطابعٍ جمالي، إلاّ إذا تم تحرير المعرفة المقدمة إلى الطلاب، وتحرير القائمين عليها «المعلمين» من كل أشكال القهر والتسلط، سواء أكان قهراً معنوياً أو رمزياً أو مادياً، وبالتالي لابد من تحرير الخبرة الجمالية بوصفها منتجاً اجتماعياً يعبر عن تطور الواقع في لحظة ما، فضلاً عن ضرورة تحرير العلم من كل الأساطير المرتبطة به، ومن هنا يمكن القول: إن التربية

الجمالية تستطيع أن تؤدي دوراً تنويرياً – سلوكاً وممارسة – وتعمل على ترسيخ القيم الجمالية، وخاصة إذا ما انطلقت من فلسفة تربوية تؤمن إيماناً مطلقاً بقدرة الإنسان على الخلق والإبداع.

3- الانفتاح على الفكر التربوي العالمي:

يرى الدكتور «حامد عمار» أن مجتمعنا العربي يتأثر بصورة واعية أو شبه واعية أو غير واعية بالتيارات والموجات العالمية المتلاحقة في تغيراتها وأحداثها ومنجزاتها، وبخاصة ما يترتب على تطبيقات العلم والتكنولوجيا في مختلف ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، ولما كان من العسير التوقع الدقيق أو التنبؤ القاطع بمحاولة تلك التغيرات العالمية وآثارها المحلية، يتحتم على نظام تعليم المستقبل ألا يقتصر في تكوينه الذهني أو برمجة عقلية المتعلم على ترسيخ عادات الاعتماد على المعلوم والمتواتر في الفترة الزمنية المحلية.(عمار، 1996، 30) ومن هنا تأتي أهمية الانفتاح على الفكر التربوي العالمي، من أجل إطلاق حوار تربوي ثقافي هدفه معرفة العلاقة بين الثقافات الإنسانية بوصفها قضية محورية يدور حولها النسق الثقافي الإنساني من جهة، والتعرف على الأفكار التربوية التي طرحتها المذاهب الفلسفية المختلفة، والاستفادة منها في تربيتنا العربية ما أمكن ذلك، وخاصة ما يتصل منها بالتربية الجمالية التي من خلالها تتاح الفرص الإبداعية، وتكتسب المهارات، وتنمو المعرفة ويتسع الإدراك، وتعمق الرؤية، وتزداد إمكانية الفرد على التمييز بين الأشياء، وتزداد إمكانيته في مجال إصدار الأحكام، ومن خلالها أيضاً يمكن للفرد أن يكتسب الخصائص التي تنميه جمالياً، حيث تنعكس آثار هذا النمو في العالم الذي يعيش فيه.

وأخيراً أضع هذا البحث التحليلي الفلسفي والمتعلق بالخبرة الجمالية وأبعادها التربوية في فلسفة «ديوي» بين يدي زملائي المعلمين، وطلبتي في وقت قلّت فيه البحوث الخاصة بفلسفة التربية، راجياً أن يثير فيهم كثيراً من التساؤلات، ويحفزهم على مزيد من المشاركة والعطاء.

المراجع

- **المراجع العربية**:

- **إبراهيم، زكريا** (1966): **فلسفة الفن في الفكر المعاصر**، القاهرة، دار مصر للطباعة.

- **إبراهيم، زكريا** (1972): **كانت أو الفلسفة النقدية (عبقريات فلسفية)**، القاهرة، مكتبة مصر.

- **إبراهيم، زكريا** (1977): **مشكلات فلسفية (مشكلة الفن)**، القاهرة، مكتبة مصر.

- **إبراهيم، وفاء (1986)**: **الخبرة الجمالية بين برنارد بوزانكيت وجون ديوي**، كلية بنات جامعة عين شمس، رسالة دكتوراه غير منشورة.

- **اوفسيانيكوف وسمير نوفا (1979)**: **موجز تاريخ النظريات الجمالية**، ترجمة باسم السقا، بيروت، دار الفارابي.

- **بدران، شبل وآخرون (د.ت)**: **الأصول الفلسفية للتربية**، الإسكندرية، مطبعة الجمهورية.

- **برنار، غروتويزن (1982)**: **فلسفة الثورة الفرنسية**، ترجمة عيسى عصفور، بيروت، منشورات عويدات.

- **جويو، جان ماري** (1948): **مسائل فلسفة الفن المعاصر**، ترجمة سامي الدروبي، بيروت، دار اليقظة العربية

- **جيوشي، فاطمة (1999)**: **فلسفة التربية**، ط(5)، دمشق، منشورات جامعة دمشق.

- **خالد، غسان (1983)**: **أفلوطين رائد الوحدانية ومنهل الفلاسفة العرب**، بيروت، منشورات عويدات.

- **خليل، محمد عادل (1988)**: **فلسفة الجمال في الفكر العربي المعاصر**، القاهرة، كلية الآداب – جامعة عين شمس، رسالة ماجستير غير منشورة.

- **الديدي، عبد الفتاح (1985)**: **فلسفة الجمال**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- **ديوي، جون (د.ت)**: **التجديد في الفلسفة**، ترجمة أمين مرسي قنديل، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

- **ديوي، جون (1928)**: **رسالة في فلسفة التربية الحديثة**، ترجمة إحسان أحمد القوصي، القاهرة، مطبعة المعارف.

- **ديوي، جون (1954)**: **الخبرة والتربية**، ترجمة محمد رفعت رمضان ونجيب اسكندر، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

- **ديوي، جون (1960)**: **البحث عن اليقين**، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

- **ديوي، جون (1962)**: **الفن خبرة**، ترجمة زكريا إبراهيم، القاهرة، دار النهضة العربية.

- **ديوي، جون (1978)**: **الديمقراطية والتربية**، ترجمة نظمي لوقا، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

- **ستيس، ولتر (1982)**: **فلسفة الروح عند هيجل**، ط2، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر.

- **سمعان، صادق (1963)**: **وحدة الخبرة في الفكر الفلسفي المعاصر**، صحيفة التربية، السنة السادسة عشرة، نوفمبر، العدد الأول.

- **شيلر، فريدريش (1991): في التربية الجمالية للإنسان**، ترجمة وفاء محمد إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- **عاقل، فاخر (1983): معالم التربية**، (ط5)، بيروت، دار العلم للملايين.

- **عباس، راوية (197): القيم الجمالية**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

- **العراقي، سهام (1984): تاريخ وتطور اتجاهات الفكر التربوي**، الإسكندرية، مكتبة المعارف الحديثة.

- **عفيفي، محمد الهادي (1970): في أصول التربية**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

- **عفيفي، محمد الهادي (1978): الأصول الفلسفية للتربية**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

- **عمار، حامد (1995): من همومنا التربوية والثقافية**، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب.

- **عمار، حامد (1996): في التوظيف الاجتماعي للتعليم**، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب.

- **العوا، عادل (1988): بحوث أخلاقية**، دمشق، مطبعة ابن حيان.

- **غانم، رمضان بسطاويسي (1991): علم الجمال عند لوكاتش**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- **فينكس، فيليب (1965): فلسفة التربية**، ترجمة محمد لبيب النجيحي، القاهرة، دار النهضة العربية.

- **كامل، فؤاد (1991): الفرد في فلسفة شوبنهور**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة

للكتاب.

- **كامل، فؤاد (1993)**: **أعلام الفكر الفلسفي المعاصر**، بيروت، دار الجيل.

- **كرم، يوسف (1979)**: **تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط**، بيـــروت، دار القلم.

- **لالاند، اندريه (1996)**: **موسوعة لالاند الفلسفية (المجلد الثاني)**، ترجمة خليـــل أحمد خليل، بيروت، منشورات عويدات.

- **محمد، عبد الرزاق حجاج (1979)**: **الجمال والقيم الفنية عند صموئيل الكسندر**، كلية الآداب – جامعة القاهرة، رسالة ماجستير غير منشورة.

- **النجيحي، محمد لبيب (1984)**: **التربية وأصولها الفلسفية والنظريـــة**، القـــاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

- **يوسف، عنايات (1975)**: **مفهوم الخبرة الجمالية عند الفلاسفة وعلماء الجمـــال (تصنيفها وعلاقتها بالفرد)**، صحيفة التربية، السنة السادسة والعشرون، أكتوبر.

- **المراجع الأجنبية**:

- **Cilds, John (1986)**. **American pragmatism and education.** New York, Holt Rinehert.

- **Dewy. J. (1940)**. **Education Today.** New York. G.P. putman`s sons.

- **Dziemidok, Bohdon (1988).** **«Controversy about the Aesthetic Nature of Art», in the Poritish Journal of Aesthetics,** Vol.28, pp. 10-28.

- **Hirst. P.H. (1974).** **Moral Education in secular society,** London, University of London press.

- **International Encycolopedia of social sciences, Vol. 12, 1908.**

نقلاً عن: **التهامي، مختار (1985): تحليل مضمون الدعاية في النظرية والتطبيق**، القاهرة، دار المعارف، ص11.

- **Red Fern, H.B. (1986).** **Questions in Aesthetic Education,** London: Allen and Unwin.

- **Richard. L.H. (1976).** **Freedom and Education: The Philosophy of Summer hill, J. Educational Theory.** Vol. 26, No. 2, pp. 188-213.

- **Russel, B. (1977).** **Education and the social order**, London, George Allen and Unwin.

- **Samuel, Shermis (1976).** **Philosophical foundations**, New York, American Company.

- **Wrigley. J. (1980).** **Values and Evaluation in Education**, London, Horper and Row.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2007/3/22.